الأدب والفن في أسبوع

للأستاذ عباس خضر

الدروس الخصوصية :

يهتم معالي عبد الرازق السنهوري باشا وزير المعارف بمشكلة الدروس الخصوصية ، ويعمل مع رجال الوزارة على إيجاد حل حاسم لها . وداء الدروس الخصوصية قد تناقل في السنوات الأخيرة حتى تسرب إلى رياض الأطفال هابطا وبلغ الجامعة صاعداً . . وقد أحس معالي الوزير بخطره منذ العام الماضي فأصدر قراراً بأن يكون الحد الأقصى لكل مدرس في الدروس الخصوصية تسع حصص في الأسبوع ، ويكون ذلك عن طريق ناظر المدرسة ولكن أحداً لم يتقيد بهذا الحد وظلت الحال على ما هي عليه ، وقال النظار إنه لم تقدم لهم طلبات في شأن الدروس الخصوصية ، وبدت المشكلة بهذا الوجه تحاول أن تستعصي على العلاج .

والواقع أن الدروس الخصوصية تجني على الطلاب وأوليائهم كما تجني على المدرسين أنفسهم ، وإذا نظرنا إلى الأفكار الحديثة في التربية التي تؤيدها المشاهدة والتجارب ، والتي ترمي إلى تكوين شخصية الناشئين عن طريق استقلالهم في مواجهة التبعات والصعاب مع الملاحظة والتوجيه عند الاقتضاء — إذا نظرنا إلى ذلك نجد أن هذه الدروس الخصوصية إنما هي رجعية منكرة في التعليم . وهي بعد تغري الطالب بالتكاسل والتشاغل عن الدروس في المدرسة ، اعتماداً على أن « بابا » سيتفق مع المدرس في آخر السنة على كذا من الحصص بكذا من الجنيهات ، ويتم النجاح بفضل هذه الجنيهات !

ثم هؤلاء الأطفال الذين نحملهم إلى الرياض ليلعبوا ويمرحوا ويحيوا حياة اجتماعية تناسبهم ، ولتنتهز الربيات الفرص لتنمية ملكاتهم وأذواقهم وتنشيط أذهانهم وإمدادها بقليل من المبادئ مادتهم حتى نرجعهم بطامة الدرس في المنزل ونستبدله لهم بما يحبون من الدمى واللعب ! ونغرس في نفوسهم منذ الصغر كراهية التعليم !

وأنا لا أستطيع أن أتصور إثماً في التعليم أشنع من إعطاء الدروس الخصوصية لطلاب الجامعة ، لأنه إخلال بوظيفتها الأولى والأخيرة وهي التمويد على البحث وتكوين الفكر المستقل ، على أن من شر الدروس الخصوصية في التعليم العام أنها تدليل على الطالب يفسده على الدراسة الجامعية ، فما بالك إذا دال الكبار في الجامعة ؟ . .

أما آباء التلاميذ وأولياؤهم — من أبناء هذا الشعب المكدود — فهم مساكين . . يوشكون أن يلقوا في المدارس ما يلقى الناس في المستشفيات من أطباء يتراخون في المستشفى ويفشطون في العيادة !

وأما المعلمون فهم أشد مسكنة من الجميع ، لأنهم يجدون أنفسهم مضطرين إليها مع ما تصيبهم به من الإرهاق وما تسببه لهم من قعود عن الاطلاع وتزويد أفكارهم وأذهانهم بما يفيد ويمتع من ألوان الآداب والعلوم والفنون .

إن المعلم على رغم ما ناله في السنوات الأخيرة من تحسن طفيف ، لا يزال يلقى المنت في حياته المادية ، فهو قلق في هذه الحياة التي لا يوصله فيها مرتبه إلى مطالب عيشه الضرورية ، فهو إذ يلجأ إلى الدروس الخصوصية لا ينبغي أن يواجه بالمنع أو العقاب ويسكت على ذلك ، بل يجب أن ييسر له العيش الكريم تيسيراً يحفظ عليه كرامته ويصل به إلى مستوى يستطيع فيه أن يستغني عن هذه الدروس الخصوصية ، فإذا سعى إليها طامع جشع ردع بما يستحق من العقاب .

ولا يكفي في حل هذه المشكلة أن يحدد ما يباح لكل مدرس من عدد الدروس الخصوصية ، بل يجب أن تحسم بالتحريم القاطع ، إلا فيما عسى أن يكون من ضرورة تلجئ إليها حالة التلميذ . وثمة نقطة لا بد من الالتفات إليها ، وهي أن المعلم لا يعطي دروساً خصوصية لأن عنده فضلا من جهد ونشاط ، فهو مرهق في المدرسة ولا شك ، وإنما تبعثه إليها الرغبة في رفع مستوى عيشه ، فلا يصح أن يكون من علاج مشكلة الدروس الخصوصية أن يزاد عمله في المدرسة وتضاف حصص إلى « جدوله » بل أنا أذهب إلى عكس ذلك فأقول بالتخفيف عنه ليتاح له أن يعالج في نفسه مشكلة الاطلاع والتزود الفكري ، وأبيح لنفسي — ولست بعيداً عن المعلمين — أن أقول صراحة إنهم يعيشون في إجداب فكري يهدد مستقبل الثقافة في هذه البلاد ، وهم يدورون في

المدارس دورات آلية تتكون كل منها فى حجرة المدرسين حيث يبدأ بنقل ما فى الكتب المدرسية إلى دفاتر التحضير ثم يلم التلاميذ شعثها ويضمونها فى كراساتهم التى يحملها المعلم إلى حيث بدأ للتصحيح ... ويتم كل ذلك بطريقة آلية مكررة لا تجديد فيها ، وأكاد أقول : ولا تفكير !

وليس ذلك لأن المعلم عاجز أو تنقصه الكفاية ، فقد درس وحصل وتخرج فى الكلية وفى أعلى معاهد المعلمين ، ولكنه أرهق بالعمل وحرم الفراغ الذى يستغله فى مداومة الاطلاع ، فاضطر أن يحيا فى شبه انقطاع عن زاد العقول ، كما اضطر أن يؤدى عمله على الطريقة الآلية السابقة .

حول صانع البؤس :

تلقيت رسالة من أستاذ جليل ضمنها رأياً فى « الخلق والفن » لا يتفق — من حيث العرف الاجتماعى والاعتبار الرسمى — مع مكانه من المجتمع والرسميات . ولهذا قال فى أول رسالته : « أما — كما يعلم كثير من الأدباء — يزعجنى أن يطرح اسمى مطرحاً يجعله موضوعاً لحديث عام ؛ وربما جاشت النفس بالخاطر يثيره رأى منحرف ، أو نظر حصيف ، وأعيا أمام شهوة الكتابة ، فأسترها مبالغاً ، حتى أوفق بين العاطفتين المختصمتين . لذلك أضع هذا الخطاب الخاص بين يديك على أنه أمانة لا يحل التصريح باسم صاحبها ، ولا وصفه وصفاً محدداً ، إن أنت عرضت له فى أسبوعياتك ؛ وغضب الله عليك إن خنت هذه الأمانة » .

ولذلك ابتعدت عن الوصف المحدد ، وعن غضب الله ... وأقدر للأستاذ الكبير حريته — المقيدة بمركزه — فى إبداء رأيه ، وأشكره على ما أضفاه على من عبارات التقدير والثناء ، وإنه ليسرنى أن أكون عند مثله كما وصف .

وأعرض بعد ذلك الموضوع الذى عرض له ، قال : « أخذت عليك رأيك فى « صانع البؤس » ، فإن صانع البؤس ليس الديب ، ولكن انحراف مزاج الديب ، الذى ما كان يملك تقويمه ، ولا يستطيعه لو حاوله . وفى الشاعر الحاذق النواسى ، الذى ما كان الديب ولا غير الديب يتعلق بغباره ، والذى يقول فيه النقاد : إن الشعر كان أقل أدواته ، ما يقرر مذهب الديب فى الحياة ؛ ثم فيما قاله هو عن نفسه : « أى شاعر يتبعك ابن الحباب » مايقطع بأن الانحلال الخلقى ليس معوقاً عن الفن الرفيع ؛ بل ربما جازت بـ ... فقلت : إن الخلق الكريم والفن الرفيع قلما يلتقيان . وعلى الجملة كل ما قلته صحيح ، ولكن الحكم على فن المنحلين بما حكمت فى حاجة إلى استدراك » .

وأقول : أولا إننى لم أحكم على فن عبد الحميد الديب ، وإنما أردت أن أصحح خطأ شائعاً يتعلق بحياته فقلت : إنه لم يكن بائساً حقيقياً ، وإنما كان يصنع البؤس ، وتضمن السياق ما يدل على انحلاله . وسواء أكان الديب هو صانع البؤس أم انحرافه ، فهو وانحرافه « متضايفان » ، وقد تعلمنا أن الإسناد إلى أيهما صحيح

أما مسألة الانحلال ، فقد كان لكلامى فيها إشارة إلى لون من الناس يحلو لهم أن يصطنعوا الانحلال دلالة على أنهم أدباء وفنانون ! ألم يكن الديب الشاعر منحلا ؟ وهم منحلون ، فهم إذن فى الأدب والفن عباقرة العصر فى مصر !

وأنا وإن كنت أوافق الأستاذ على أن الانحلال الخلقى لا يعوق الفن إلا أننى أقف عند قوله : « إن الخلق الكريم والفن الرفيع قلما يلتقيان » فلا أسلم بهذه القضية .

إن النابغين من ذوى الانحلال الخلقى يجيدون حقاً فى التعبير عن ميولهم وتصوير تجاربهم ، وهم كثيرون ، ولكنهم لا يغلبون على ذوى الخلق الكريم ، وأنا لا أميل إلى التعبير الخطابى ، وإنما أريد أن أفرق بين الانحراف فى الخلق الشخصى وبين الانحلال فى الصفات الإنسانية الرفيعة ، وقد اجتمع الاثنان للديب ، ومن النوع الثانى فيه الحقد وعدم الوفاء ومقابلة الإحسان بالإساءة ، وهذا النوع لا يقبله الفن الرفيع . وعلى ذلك أقول الآن : إن الديب لم يكن ذا أدب رفيع .

الشخصية السليمة :

ألقى الدكتور إبراهيم ناجى محاضرة نفسية موضوعها « الشخصية السليمة » بنادى رابطة الأدباء يوم الأحد الماضى ، فعرف الشخصية بأنها التجاوب المنسجم بين البيئة وبين العقل والشعور المتماسكين ، وشرح التماسك بأن وحدات العقل واتجاهات الشعور قد تختلف فيما بينها ولكنها كجاذيف السفينة تختلف اتجاهاً وتتحد فى الهدف ، فالعوامل النفسية تتنازع ، ولكنها تتفق على الغاية فتمضى إليها كالتيار الجارى . ويقابل التماسك الصراع وهو أن تتعارض العناصر ويعمل كل منها ضد

الآخر ، فينفك بناء الشخصية . وقال إن فى متناول أيدينا أن نحمل من اتجاهات نفوسنا طرقاً قوية متلاصقة متلاحمة متوازية ، وأول عامل فى بناء الشخصية هو ما يسمى « قبول النفس » وهو أن يقبل الإنسان نفسه كما هى ، لا يجزع من عيوبه ولا يعدها مهانات بل قيوداً عليه أن يحطمها ، ولا يعدها عوائق بل حوافز تدفع إلى الأمام ، فيواجه نقائصه ولا يهرب منها ، كما فعل سقراط إذ ألف أرستفانيس مسرحية تندد به فيها ، وكان سقراط حاضراً يوم تمثيلها فلما عرضت شخصيته وقف لكى يراه الجماهير .

فليس الشعور بالنقص عيباً فهو أمر طبيعى ، وإن أول سبب لاعتلال الشخصية هو اعتبار الصفات الغريزة عاهات يجب تغطيتها بمختلف الوسائل ، فالواجب تحويل النقص إلى كمال ، فصاحب الحياء أو محب العزلة يمكنه أن ينتفع بعزلته فى البحث والتأليف ، وصاحب الفضول والتطلع ينتفع بطبعه هذا بأن يكون شرطياً سرياً أو صحفياً .

ثم تساءل الدكتور ناجى : هل البيئة الواحدة تخلق شخصيات واحدة ؟ فأجاب بأن البيئة تضع من يعيشون فى دائرتها فى قالبها العام ولكنها لا تجبر كل واحد على نفس ذلك القالب ، على أن لكل فرد أسلوبه الخاص فى الحياة . وتحدث عن علاقة الغدد بالشخصية فقال إن الغدد تؤثر فى الأمزجة والطباع حقيقة ، ولكن الشخصية قد تتكون رغم ذلك ، ولا لزوم للحكم على شخصية الإنسان من شكله الذى أدى إليه تركيب غددى خاص . ثم قال : إن مميزات الشخصية السليمة أن يكون لها ظل خارجى ممتد ، وعند ما يصير الهدف إنسانياً أو اجتماعياً يكون فجر الشخصية قد انبثق ، فإذا صار الهدف روحانياً فقد بلغنا مستوى أعلى هو مستوى الإيمان ، وهو تلك القوة الخارجية التى تشع فى داخلنا الجلد والصبر والعزيمة .

الشخصية المعتلة :

وأعقب الأستاذ وديع فلسطين الدكتور ناجى ، فألقى محاضرة عن « الشخصية المعتلة » قال : اعتلال الشخصية أنواع نقصر حديث اليوم على نوع منها يسمى « السيكوباتية » وهى السلوك المرضى ، والسيكوباتى عدو للمجتمع ولا يسلم هو من عداوته لنفسه ، ولا يصدر سلوكه المرضى عن وعى أو إرادة ، وإنما ينساق فى تصرفاته انسياقاً أعمى مشبعاً بطفولة فى الاتجاه الفكرى واستغراق فى لذات عارضة هدامة ، وسير فى الحياة بلا هدف أو وراء هدف صورى لا وجود له . فقد يشعل النار فى نفسه لا رغبة فى الانتحار بل حباً فى رؤية النار تحمد جسمه ، وقد يسرق ، لا رغبة فى المسروق ، بل لمجرد الإيذاء والعدوان . وهو لا يقدر على التكيف والانتظام فى عمل . ولا ينفع فيه التقريع والعقاب ، لأن فطرته عودته على الاضطراب والخلل .

ثم قال إن المريض بالسيكوباتية لا ينبغى أن يسلك مع المجرمين ، لأن المجرم المحترف يدبر لنفسه ويقدر جميع الاحتمالات لينجو ويفلت من العقاب فله إرادة ومنطق وغاية ؛ أما السيكوباتى فهو يقترف جريمته دون قصد أو تعمد ، وكثيراً ما يكون أول من يصاب بجرمه ويلحقه أذى تصرفه المنحرف . ومن المؤسف أن هؤلاء المرضى يعاملون فى مصر إما معاملة المجرمين فيزج بهم فى السجون ، أو يحسبون مجانين فيحالون إلى مصحات عقلية لا تجديهم نفعاً . وجدير بنا ، وقد استطاع الأطباء العقليون أن يشخصوا داء السيكوباتية ويبينوا أعراضه ومظاهره ، أن نفكر تفكيراً جدياً فى تهيئة الوسائل التى من شأنها مساعدة هؤلاء المرضى على أن يألفوا الحياة الاجتماعية شيئاً فشيئاً ، وعلى أن يصبحوا أداة نافعة فى المجتمع ، أو يجنب المجتمع آثارهم السيئة .

ارسم « أبو رجل مسلوخة » :

قرأت الكلمة التى أراد فيها أحد معلمى الرسم الأستاذ كامل بطرس عصفور ، أن يعلمنى الأصول التى كان يجب أن أقف عليها قبل نقد السؤال الذى طُلب فيه من تلميذات المدرسة السنية أن يرسمن شجرة الزقوم ورؤوس الشياطين ؛ وأهم هذه الأصول أن تخاطب الصورة المطلوب رسمها قلب الطفل وتملأ نفسه . وها أنذا قد وقفت على هذه الأصول ... بفضل معلمى الفاضل ... ولكنى لا أرى فيها شيئاً ينقض ما قلت ، فأين شجرة الزقوم وأين رؤوس الشياطين من قلب الطفل ونفسه ؟ ! وما هى تجربته إزاء هذه الأشياء حتى يعبر عنها ..؟ فليطالب الأستاذ من تلاميذه رسم « البعبع » أو « أبو رجل مسلوخة » أو ما ماثل ذلك مما ينطبق على أصوله .. أما الجحيم وشجرة الزقوم ورؤوس الشياطين فلا .

وهو يقول إنه لا يوافقنى على قصر التخيل على العباقرة وأنا ما قصرته عليهم إطلاقاً ، إنما قصرت تخيل الجحيم وما فيه على أولئك العباقرة . أما ما دون ذلك فللأستاذ أن يجول فيه بتلاميذه أو تلميذاته كما يشاء .

عباس خضر